الجريمة والعبقرية

اذا درسنا المجرمين والعبقريين والنابغين من رجال العلم والتأليف والفن ، الذي تمتلىء باسمائهم سجلات الخلود العالمية ، من الناحيتين العقلية والجسمانية ، وجدنا ان العبقري لا يختلف كثيراً عن المجرم الذي يلقى في غياهب السجن ويحبس عن المجتمع درءاً لشروره وآثامه . فهل هناك علاقة بين الجريمة والعبقرية ؟ وهل العبقري يميل لاقتراف الجرائم واجتراح المساوي اكثر من غيره ؟

لنأت اولاً على تعريف الجريمة ، وماذا نريد بها

اختلف علماء الاجرام (Criminologist) في تعريف الجريمة ، فقال بعضهم : « انها عمل مخالف لانظمة المجتمع » وعرفها آخرون بقولهم : « ان يعيش الانسان حياة مخالفاً نظام السلوك والآداب المعترف به من بقية افراد المجتمع » وقال غيرهم : « ان الجريمة اي عمل سواء أكان اهمالاً او ارتكاباً يجازي به القانون لفائدة المجتمع » او قول بعضهم : « شذوذ عن احكام الشريعة والآداب » . فنرى ان ثمة اختلاف ظاهر في التعاريف المذكورة ، وليس بالامر اليسير تعريف الجريمة تعريفاً دقيقاً . واذا فكان يعتبر جريمة في السابق لا يعتبر كذلك الآن ، وعلى الضد من ذلك فقد نحسب عملاً ما جريمة الآن ولكنه لم يكن في نظر الاقدمين كذلك . فان الشعوذة كان يعتبر محترفها مجرماً ولكنها الآن ليست كذلك . والرقيق الذي كان في الماضي عملاً يرتزق منه الناس كثيرون اصبح الآن يعد جريمة اجتماعية لا تغتفر ويطارد صاحبها . وقد يُعَدُّ نوع من الاعمال جرماً عند امة ولكن عند غيرها قد يحسب عملاً شريفاً

يقول لومبروزو (Lombroso) : « ان المجرم نوع خاص ، يقف وسطاً بين العته والوحشية » . اما « وزلاف » العالم النفسي فيقول في كتابه « الانسان العقلي »[1] ما يلي : « ان المجرم يمثل نوعاً آخر من الفرد المتوقف (اي العاطل) . وليس المجرم شخصاً بسيطاً ، ومجرماً عَرَضِيًّا ، وانما هو انسان لا يفرق بين واجباته وحقوق الآخرين . وتنقصه حاسة الاخلاق واما قوة ادراكه فضعيفة بوجه عام ، وهو قليل الشعور بحاسة الالم بوجه خاص ، ولذا كان قاسياً عديم الشفقة . ومن صفات المجرم ايضاً الكسل ، وهو معجب بنفسه ، لا يندم على ما يقترف من آثام واجرام ، شديد الولع بالشهوات ، والقمار ، والفسق ، والدعارة ، مهمل للديانة ،

(١) "The Mental Man" by G. G. Wenzinff (٢٦٠ ص)

كلوه للانسانية . وعلاوة على ذلك فهو خبيث ، قليل الذكاء ، وميزاته الفراسية (physiognomie) واضحة ظاهرة كميزاته العقلية »

هذا ما يقوله ونزلاف عن تعريفه للمجرم . فهو يصفه باوصاف نراها منتشية بصورة عامة بين مختلف طبقات الناس . وقد خالفه لومبروزو العالم الايطالي المشهور ، الذي عد علماء الاجرام مدى جيل يعتبرون كتبه من اهم ما الف من نوعها في العلوم النفسية ، ومن جملتها كتاباه «الرجل العبقري» و «الرجل المجرم» . فان لومبروزو يغرق اغراقاً في بحثه واستدلاله على تبيُّن الاجرام من القسمات والجوارح ، وما يميز ذلك من خواص وحقائق . ويعتقد لومبروزو: «ان للمجرمين شذوذاً في القوى الجسمانية والعصبية والعقلية اكثر من شذوذ غير المجرمين وان هذا الشذوذ سببهُ اما انحطاط وتقهقر (في القوى العقلية) ، واما رجوع او ردة لمرض وراثي في العائلة »[1] . وقد اشتهر قبل لومبروزو بمدة طويلة في البحث في الاجرام العالم الطبيعي النمساوي (فرنز جوزيف غال) Franz Joseph Gall وقد كان بحاثة مشهوراً في العلوم المتعلقة بدراسة الجمجمة والدماغ وتلافيفه ، فأخذ بالنظرية الآتية وهي : « ان الميول الاجرامية غريزية في الغالب ، ويمكن ان تُكشف وتظهر بدراسة تركيب الجمجمة »[2]

ثم ان الدكتور غورينغ Dr. Goring يذكر في كتابه « المجرم الانكليزي » ١٩١٣ ، بعد بحث واستقصاء عظيمين ان من النتائج التي توصل اليها النتيجة الآتية :— « لا يوجد هناك ما يصح ان يطلق عليه نوع المجرم الطبيعي» . ان هذه النتيجة التي توصل اليها العالم المذكور قد وافقه عليها جميع علماء الاجرام ، وقد زاد على ذلك فقال انه لا يوجد نوع يطلق عليه «المجرم العقلي» . وقد ظهر الآن ان الجريمة مظهر متشعب من مظاهر الحياة الاجتماعية للطباع والعادات الخطرة الموبوءة ، كالفقر المدقع ، وانتشار الاوبئة والامراض ، واختلال القوى العقلية»[3]

لقد عرفنا الجريمة والمجرم ، فلنأت الآن على تعريف العبقرية ، فما هي ، وما علاقتها بالجريمة؟

العبقرية موهبة ، وشذوذ في النمو العقلي ، تنحو بصاحبها للتفوق على اقرانهِ في عمل مشترك ، واظهار مقدرة فائقة في ناحية من نواحي الحياة ، يقصر بقية الناس عن اللحاق بهِ ومجاراته فيها ، فاذا قلنا ان فلاناً شاعر عبقري مثلاً فاننا نقصد بذلك أنهُ نابغ في فنهِ (الشعر) متفوق بهِ على زملائهِ في هذا الفن ، من ذلك شكسبير ودانتي وغيرهما ، وانهُ (اتى بما لم تستطعهُ الاوائل) على حد قول المعري . . .

والعبقرية تنشأ على الغالب ، من خلل في خلايا الدماغ وتوتر في الاعصاب ، وقد تحدث

(١) دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة . مجلد ١٤ . ص ٣٤٥

(٢) » » » » » » ٦ » » ص ٧٢٠

(3) George. W. Kirchway in the Encyclopaedia Britannica vol 6 p. 720-21

بسبب البيئة والوراثة ، وأعراض كثيرة تنم على الانسان في مختلف ادوار حياته . وللامراض ايضاً أثر قوي في العبقرية ، وخصوصاً ما كان منها مزمناً كالسل وغيره . وكثيراً ما قيل ان العبقرية تنشأ من الامراض . ولقد قضى كثير من العبقريين ، كالشاعر الانكليزي كيتس والروائي الروسي تشيخوف والكاتب الانكليزي ستفنسون ضحية هذا الداء الوبيل (السل)

وقد جاء في محاضرة للدكتور بيرسون [1] Dr. A. Tere Pearson الطبيب في مستشفى مندسلي ما يلي : —

« كثيراً ما نسب العلماء البواعث الشريرة للعبقرية الى مرض السل . ولكني احسب ان هؤلاء قد افرطوا جداً فيما نسبوه اليه . ومما لا ريب فيه انهُ يحدث هيجان واضطراب في بعض اعراض مرض السل الرئوي ، وثمة شعور بقصر الحياة ، ولكن هذا الشعور لا يسلم به العقل الواعي . ان الشعور بقصر الحياة والهيجان المضطرب الناشئين عن هذا المرض المزمن ، وخصوصاً في ادواره الشديدة ، قد يكونان كباعث قوي وسنبه للانتاج والابتكار ، ولا سيما عند المؤلفين ، الذين يتمكنون من دون كبير عناء جسماني ، من اظهار آثارهم ونبوغهم »

يتلخص معنا من هذا ان المرض ليس شرطاً من شروط العبقرية ، وانما هو عارض طارىء لا يلبث ان يزول ، اما العبقرية فانما وُجدت ، فهي موجودة اصلاً ، ولكن المرض قد يزيدها تأججاً واضطراماً

هذا وبعد ان اتينا على تعريف الجريمة والعبقرية فنبحث الآن في العلاقة بينهما ، وهل يكون المجرم عبقريًّا ، والعبقري مجرماً ؟ انا نرى العبقري غريباً في افكاره وأطوار حياته ، متصفاً بصفات شاذة ، اكثر ما يتصف بها المجانين والمجرمون . وثمة تقارب ظاهر بين المجرم والمجنون والعبقري ، والصفات والعادات التي يتصف بها هؤلاء الثلاثة لا تقول انها واحدة ، ولكنها قريبة مشتركة ، ويمكننا ان نعد هؤلاء ثواراً على الهيئة الاجتماعية وهم ابعد ما يكونون عنها وعن الانسان العادي . فالعبقري تمثل فيه الروح الاجرامية الثائرة بمظاهرها المختلفة ، ويتأجج في نفسه البغض نحو المجتمع الذي لا ينفك يثيره ويهيجهُ وهو في خصام دائم معهُ ، تتنازع صدره الاطماع والمنافع ، وتثيره الانظمة والقوانين فيكاد يحطمها ، ويسعى جهده لتبديلها وتغيير معالمها . فأوجه الشبه بين العبقري والمجرم انهما مشتركان في صفات عدة ، كالانفعال الشديد الهدام ، والثورة المضطرمة والبغض المتأجج ، والحقد الدائم ، والخيال الوثاب ، وغير ذلك . اما الشواهد الدالة على تقارب ذهني المجرم والعبقري فكثيرة في التاريخ

(١) راجع عدد آب (اغسطس) سنة ١٩٣٢ من مجلة "Journal of State Magazine"

يقول هنري رودس في كتابه « المجرم والعبقري »[1] ما يأتي : —

« إنَّ العبقرية اكبر اعداء المجتمع . والمجتمع يصل لهدم العبقري وهلاكه اولاً حين يتعقد آراءه الاجرامية ويتبعها . فالعبقري يضر المجتمع ويهدمهُ احياناً كثيرة . وقد صعل نابوليون من اوربا مذبحاً ومجزرةً . اما لنين فقد ترك روسيا جائعة دامية . وقد قيل ان فولتير يحمل تبعة الثورة الفرنسية وهو مسببها ، فقد قوَّض بقلمهِ الحاد ، دعائم النظام في فرنسا ، ومهَّد بذلك السبيل للثورة . ولكن من الخطأ ان نعتبر العبقرية مضرة ، او نافعة ، فقد تكون هذه او تلك . . . »

فالعبقرية نتيجة حالة غير طبيعية في العقل البشري : وهي بثورانها ضد المجتمع تدور في دائرة ، وكثيراً ما ترى لها مخرجاً في الرجل المجرم . ومن امثلة الطبيعة الثائرة « اوغست ستريندبرغ » الكاتب القصصي المريدي . فقد تجمعت فيهِ صفات كثيرة ومواهب عديدة ، فكان مؤلفاً مسرحيًّا وكاتباً روائيًّا ، وطالباً نباتيًّا ، وكيمائيًّا ، ومن العجيب انهُ تعلم اللغة الصينية وهو لم يزر قط بلاد الصين ! وقد كان يحتقر ما تواضع عليهِ المجتمع من مقاييس السلوك والآداب ، ويكره ما ائتلف عليهِ الناس من قواعد الاخلاق وأنظمتها . وقد أتهم بالتجديف ، وكتبه مشحونة بالآراء الثورية ضد المجتمع ، حتى انهُ في لهو حياته ظهرت فيهِ بوادر عديدة للأجرام . وكان ريشيليو غير شريف في الاساليب والطرق التي سلكها لجمع المال . وبدأت حياته بالتزوير ولما اعطيت له ورقة عماده الكهنوتية بواسطة وثائق مزورة ، وضع فيها اسمهُ في سجل العماد بدلاً من اسم اخيهِ . ويقول رودس المذكور آنفاً : « ان جرائم ريشيليو سبب قوي في ظهور عبقريته ؛ وان ريشيليو المجرم هو الذي كان عظيماً . واما بقية مواهبه فكانت عادية ، بل حقيرة »

اما (ادجر ألن پو) الشاعر الاميركي فكان (عبقريًّا — مجرماً) بمعنى الكلمة ، فكان دائم النزاع والثورة مع المجتمع ، وقصتهُ اجرامية حافلة بحوادث المجرمين ووقائعهم . ويصف (پو) المجرم وصفاً لا يصفه به غير المجرم . واما اسكار وايلد فحاكتهُ وسجنه نظمهُ للملأ مجرماً كبقية المجرمين ، لا يختلف عنهم في شيء . ولعلَّ من قرأ كتابه « من الاعماق De Profundis » الذي ترجم للغة العربية ، يعرف ماذا قاسى وكيف عاش وايلد في السجن مع زملائه العاديين !

فبين العبقرية والجريمة اذاً ، اتصال وثيق ، ولكن ليس شرطاً ان يكون العبقري مجرماً او ان يكون المجرم عبقريًّا .. وانما هي فلتات الطبيعة وشذوذها ، تجعل من الانسان تارةً عبقريًّا يحلق في سماء الخلود ، واخرى مجرماً يعيش وراء القضبان في ظلام السجون ! . . .

حلب : سورية فؤاد عيناتي

(١) "Genius & Criminal : a Study in Rebellion" by Henry T. F. Rhodes